ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449 مجلة الآداب و العلوم الإنسانية
مجلد : 11 عدد 2 السنة :2012

المبادئ الناظمة للخطاب اللغوي النبوي الشريف–
من الوصف إلى الإنشاء

The Principles Governing the Linguistic Speech of the Holy Prophet
From description to creation.

د/كريم خلدون

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

الملخص :

يقوم هذا البحث على محور فكرة أســـاســـية مفادها أن الخطاب – التخاطب النبوي الشـــريف التواصـــلي بكل مكوناته الإســـتراتيجية الداخلية و الخارجية يمثل الأنموذج الفعال المحقق للغايات التواصـــلية اللغوية بكل دقة .. في شتى مجالات الحياة ... و على مختلف المستويات الفردية و الاجتماعية و الإنسانية , و إن اختلفت الأحوال و المقامات و تبدل الزمان و المكان أو تعقدت المرجعيات و الثقافات ... فالخطاب – التخاطب التواصلي اللغوي النبوي – بذلك – يبقي أنموذجا كاملا يحتذى بـــــه و صراطا مستقيما علميا لا يعلو عليه أي لون أو نمط خطابي تواصلي لغوي آخر ماضيا و حاضرا و مستقبلا ... قال صلى الله عليه و سلم : (بعثت بجوامع الكلم) و قال (إني أوتيت جوامع الكلم و خواتمه , و أختصر لي الكلام اختصارا) ....

الكلمات المفتاحية :

الخطاب النبوي الشريف – التخاطب – المرجعية – البيئة التواصلية – القصدية – المبادئ الناظمة

ABSTRACT

This research is based on the axis of a basic idea that the communicative speech - the communicative speech of the noble Prophet, with all its internal and external strategic components, represents the effective model which achieves the linguistic communicative objectives precisely.. in various areas of life. .. and at various individual, social and human levels, and If conditions and statuses differ, times and places change, or references and cultures become more complex... then the discourse - the prophetic linguistic communicative discourse - remains therefore a complete model to be followed and a straight and scientific path which is not superior to any other discursive or communicative linguistic style, past and present and in the future... Him, prayer and the peace of God be upon he said: the summaries of the words", and he said: "I was given the summaries of the words and their conclusions.

Keywords

Discourse of the Noble Prophet - communication - reference - communicative environment - intentionality - regulatory principles

المقدمة :

تأسيسا على رؤية ابستمولوجية ارتأت هذه الورقة البحثية أن تستعيض عن المنهج الذي يتعاطى مع الظاهرة التواصلية اللغوية الإنسانية من زاوية اعتبارها مظهرا يستدعي علميا التمثيل الدقيق و التصوير الموضوعي الوصفي إلى المنهج الذي ينطلق من البعد الخفي لظاهرة الخطاب – التخاطب التواصلي اللغوي الذي ينشئه وفقا لنسقية معرفية علمية محكمة و منظومة مبادئ حاكمة و تخطيط مقصدي يتجاوز الموقف التواصلي الفعلي للتعامل مع مختلف المواقف التواصلية عبر الزمان و المكان , محققا بذلك الشكل النموذجي العالمي لخطاب تواصلي رسالي كوني ....

أما الإشكالية التي يريد هذا العمل أن يسلط الضوء عليها فيمكن عرضها في جملة من الأسئلة منها : ما مكونات النسق الأساسية الحاكمة لبنية خطاب – تخاطب كلام النبي محمد صلى الله عليه و سلم ؟ ما الذي يجعل من نموذج الخطاب – التخاطب اللغوي النبوي متجاوزا الفضاءات الزمانية و المكانية الناشئ فيها بداية ؟ هل يمكن إعادة إنتاج هذا النوع التخاطبي اللغوي المثالي كلما اقتضت الضرورة و المصالح العليا ..؟ ... هذه الأسئلة و غيرها يمكن تفكيكها و سبر أغوارها و استجلاء من ثمة بعض سننها وفق إطار معرفي أصيل و هو علم التخاطب الإسلامي ...

الخطاب النبوي منطلقات معرفية مؤسسة :

و حتى ننزل هذه الحقيقة على الواقع العملي اللغوي لموضوع بحثنا , يجدر بنا أن نستهل مسيرته من هنا إذ (كل بحث لا بد أن يضبط مجاله الذي يدور فيه و المفاهيم العاملة التي يعتمد عليها , فيتعين بذلك موقعه من الاختصاصات المتنوعة المتداخلة , و يتمكن المتقبل من مفاتيح ولوجه القائمة على تلك المفاهيم , و هذه ضرورة ابستمولوجية)[1] , و عليه يعد الحديث النبوي الشريف ظاهرة لسانية مركبة و (علامة كبيرة ذات وجهين : وجه الدال و وجه المدلول)[2] . و في الوقت نفسه منظومة نحوية قائمة بذاتها , تشكل قواعد لغوية تواصلية محكمة من (نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض .. تجمع عناصره المختلفة و المتابعدة في كل واحد)[3] هو ما نطلق عليه مصطلح الحديث النبوي الشريف , يتلبس بتلك المعطيات كلها بطريقة تثير انتباه قارئه , و تجعله يستشعر تميز هذا النسيج اللغوي النبوي (على لغة البشر العاديين , و هي في الوقت نفسه لغة بشر منهم , و لكنها سكبت بنفحات النبوة و أنوار الوحي , فالنبي صلى الله عليه و سلم أوتي جوامع الكلم ,كما أخبر هو عن نفسه صلى الله عليه و سلم فقال (أوتيت جوامع الكلم) .. و حديثه صلى الله عليه و

[1] – الأزهر الزناد : نسيج النص بحث فيما يكون فيه الملفوظ نصا , المركز الثقافي العربي , ط1 : 1993 م , ص : 11 .
[2] – المرجع نفسه , ص : 12 .
[3] – المرجع نفسه , ص : 12 .

سلم كله حق و صدق لأنه وحي , كما قال سبحانه : (و ما ينطق عن الهوى وحى) ...)[4], و لهذا كل من له دراية باللغة العربية – و لو قليلة – يستطيع أن يفرق بين الكثير من الخطابات اللغوية غير النبوية على اختلاف أشكالها و خطاب الحديث النبوي الذي يخرج (قصدا في ألفاظه , محيطا بمعانيه , تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة و الكلمات المعدودة بكل معانيها , فلا ترى من الكلام ألفاظا و لكن حركات نفسية في ألفاظ , و لهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب , و كثرت جوامع كلمه .. و خلص أسلوبه , فلم يقصر في شيء و لم يبالغ في شيء , و اتسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة و البلاغة ما لو أراده مريد لعجز عنه , و لو هو استطاع بعضه لما تم له في كل كلامه , لأن مجرى الأسلوب على الطبع , و الطبع غالب مهما تشدد المرء و ارتاض و مهما تثبت و بالغ في التحفظ)[5].

لقد استطاع الزمخشري أن يصف الحديث النبوي وصفا دقيقا في قوله (إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته مخضه , و ألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة و أوفر سلام , فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل , و ما من مصقع يناهزه , إلا رجع فارغ السجل , و ما قرن بمنطقه منطق إلا كان كالبرذون مع الحصان المطهم , و لا وقع في كلامه شيئ من كلام الناس إلا أشبه الوضح)[6] , على أساس ذلك يستطيع الدارس أن يتجه بحثا في تعاطيه مع هذا اللون من الخطاب اللغوي المتميز اتجاهات مختلفة تحاول قدر المستطاع الكشف عن بنياته اللسانية المتنوعة و أنساقه الفاعلة في تشكله و تشكيله بحيث يتمظهر لدى المتلقي في صورة تخاطبية تجعله متفاعلا معه تفاعلا خاصا يراعي فيه كل المعطيات و الحيثيات التي تعمل على تأسيسه و إفراده و تخريجه في البنائية اللغوية التي تحافظ على كينونته و معالمه الخاصة به و لكن كل ذلك في (إطار نظري جديد) [7] ينظم و ينسق المعطيات الكلية و الجزئية و يبوؤرها في مقصدية تناغم طبيعة نص/خطاب الحديث النبوي الشريف على اختلاف السيرورة الزمانية و المكانية ...

الحاجة إلى جهاز معرفي علمي فعّال :

و انطلاقا مما تقدم بات من الضروري (تطوير جهاز موضوعه) [8] الخطاب النبوي الشريف (..

---

[4] – أحمد قاسم كسار : النظرية التحويلية التوليدية و تطبيقاتها في نصوص السنة النبوية , مجلة الحديث مجلة علمية محكمة نصف سنوية , يصدرها معهد دراسات الحديث النبوي (لإنهاد) , الكلية الجامعية الإسلامية العالمية بسلانجور (ماليزيا) السنة الثانية : العدد : الثالث , 2012 م , ص : 36

[5] – مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب , دار الكتاب العربي , ط5 : 1999 م , ج 2 , ص : 300. .

[6] – الزمخشري : الفائق في غريب الحديث, تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل ابراهيم , عيسى البابي الحلبي و شركاؤه , ط: 2 , ج1 , ص : 11 .

[7] – الأزهر الزناد : نسيج النص بحث فيما يكون فيه الملفوظ نصا , ص : 14 .

[8] – المرجع نفسه , ص : 11 .

باعتباره فعالية نصية منشئة للمضامين و صانعة لأشكالها و مغيرة لأحوالها ..) [9], فلا يُقرأ لمقصده التشريعي ولا لبعده الجمالي و البلاغي فقط ، وإنما يعامل بوصفه نصا/خطابا نسقيا كليا , يتشكل من مجموعة من أنساق جلية ومضمرة يصعب رؤيتها بواسطة القراءة السطحية غير المتخصصة , لأن طبيعة البناء اللغوي نفسه تعمل على الحيلولة دون المكاشفة الميسورة لكل يدخل في علاقة تواصلية استعجالية . وبالتالي فمهمة القارئ/المتلقي تكمن أساساً في الوقوف المتأني المؤسس للتعاطي الايجابي مع البنيات النسقية الظاهرة و المضمرة لنص الحديث النبوي الشريف حتى يمكنه من الفيوضات المتنوعة الفكرية و الروحية و الأخلاقية و الاجتماعية ... و الثقافية و إنسانية العالمية ... من منطلق رؤية تعتبر الحديث النبوي وحدة كلية تتكون من مجموعة من الأجزاء تحيطها الحدود حيث تتفاعل داخله الطاقة الفيزيقية والعقلية والنفسية للأطراف المتخاطبة المشكلة له , دون إهمال ما يحدث خارجه من مؤثرات تكزينية مباشرة و غير مباشرة , فـ(لا يتبع الفعل يبع الفاعل ..) [10] فقط (بل الفاعل يتبع الفعل) [11] كذلك .. و بذلك نجعل رؤية بارسونز في كتابه : بنية الفعل الاجتماعي تقف على نقطة التوازن , بحيث لا يطغى الفعل على الفاعل و لا الفاعل على الفعل ..

و لما كان الحديث النبوي الشريف بهذا الحقيقة القائمة بذاتها و هذا التميز الذي يموقعه في المنزلة التي تقتضي التعامل معه على أساس كونه نسيجا لغويا متميزا قائما بذاته و فعلا (تحقق في التاريخ .. إما تعليق على فعل من شخص و إقرار له على فعله , و إما جواب عن سؤال طرحه أحد أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم عليه فأجابه عليه , أو مبادرة من النبي صلى الله عليه و سلم عليه للدعوة إلى شيء و تغيير واقع سيئ يريد تغييره) [12], بات من الضروري على التفكير اللغوي الحديث أن يستهدفه بجملة من الدراسات المتخصصة , بحيث تعمل هذه الأخيرة على اقتحام تخومه المختلفة و الإبحار في فضاءاته المشكلة لكل نسقياته الملفوظة و الملحوظة بغية التعرف على الاستراتيجيات و الخطاطات المختلفة الذهنية و اللغوية و المرجعية و الآليات و الأدوات المؤسسة لنص/خطاب الحديث النبوي و التي تعمل على تماسكه و استمرارية تمايزه على باقي النصوص اللغوية الشرعية المقدسة أو تلك التي دنسها الفعل الانساني بكل معطياته ورغباته و أطماعه و تجاوزاته ... ,

هل الحديث النبوي نص/خطاب لغوي متميز قائم بذاته ؟ هل هو محكوم بنسقية تميزه عن باقي النصوص التشريعية و غير التشريعية ؟ ما الذي يجعل كل من له نصيب من الثقافة و التعلم من أن يفرق بين

[9] – طه عبد الرحمن : فقه الفلسفة (1) الفلسفة و الترجمة , المركز الثقافي العربي , ط1 : 1995 م , ص : 74 .
[10] – نيكلاس لومان : مدخل إلى نظرية الأنساق , ترجمة يوسف فهمي حجازي , منشورات الجمل , ص : 25 .
[11] – المرجع نفسه , ص : 25 .
[12] – محمد حسن زراقط : تاريخانية السنة , بين الفهم التاريخي و تعطيل السنة , مجلة البصائر , العدد 47 , السنة : 2011 م , ص : 63 .

النص القرآني و نص الحديث النبوي و باقي النصوص اللسانية التواصلية التي يعـج بها الواقع التواصلي العربي ؟ هل هناك قواعد نحوية خاصة بالحديث النبوي تعمل على تشكيله و تمييزه ؟ هل يمكن ان نشكل نظرية نحوية خاصـــة بنص الحديث النبوي لها منطلقاتها و مبادئها ؟ ما الذي يمكن أن تقدمه هذه الرؤية وفي هذا الاتجاه للثقافة العربية الحديثة ؟ هل تســتطيع نظرية نحو الحديث النبوي أن تســهم في ردم الهوة العميقة بين التبينات المذهبية القديمة والحديثة التي تحول دون وحدة المة و تطورها ؟ ...

نقطتا انطلاق الدرس المعرفي العلمي :

المتابعة الاستقرائية لما أنتجه التفكير الغربي الإنسـاني الحديث و التفكير العربي قديمه و حديثه , و اعتمادا على القراءات المحكمة الموضـــوعية المحترفة لكل ذلك , تنتهي إلى جملة من النتائج , منها ما يمثل التقاطعات الانسـانية المعرفية المشتركة و منها ما يكشـف عن التميزات الحضـارية و الثقافية و تحيزاتها , و من بين الحقائق التي تمت لهذه الأخيـــــرة بصلة ونبه إليها الكثير من العلماء أن (.. المنطق في دراسة الغربيين يختلف .. تمام الاختلاف عما نـــراه منطلقا لدراسات في هذا الموضوع في البلاد العربية و الإسلامية ..) [13] ...و عليه فإن التعاطي مع ظاهرة الخطاب النبوي الشـــريف من خلال المنظور الدرســـي المعرفي الغربي يتخذ موقفا مختلفا عن التعاطي ما الظاهرة نفسها و لكن من منظور عربي و إسلامي ..

وتوضيح ذلك يكون في ما يلي :

أ – الموقف الوصفي:

معظم المناهج الغربية في تحليل الخطاب , إن لم نقل كلها , تتســم بســمة الموقفية الوصــفية تجاه الظاهرة تحليل الخطاب , سواء أكان هذا الأخير مقدسا أم مدنسا فـــ (.. الدارس للقضية في أمريكا أو إنكلترا أو فرنسة , يدرسها كأنـــه يصف واقعا اجتماعيا , يعني ظاهرة شاخصة أمام عينيه , فيقف منها إلى حـــدّ كبير موقفا وصفيا : موقف الإنسان الذي يصف ظاهرة و يريد تقديم أوضـــح صورة عنها بما ينبغي عليه أن يحـــدد خطوطها العريضة و القصيرة ..) [14] ...

و إذا ما أردنا تجلية الموقف الوصفي في هذا السياق المعرفي فإنما يراد به , إلى حد بعيد , ما يشبـه (.. لوحـة معلقة تعطينا فعلا ملامح الشيء كما تراه العين التي صورته بقدر ما تكون صادقة في تصويره حقيقة , و ليس على مذهب بيكاسو و ليس بريشة بيكاسو . و بهذا تكون الصورة واضحـــة إلى حـــدّ ما , إنما لا تعطينا وسيلة لإعادة بناء الشيء المصور ...) [15] ...

ب – الموقف الإنشائي:

---

[13] – مالك بن نبي : مجالس دمشق , دار الفكر , ط2 : 2006 م , ص : 97 .

[14] – مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص : 97 .

[15] – المرجع نفسه , ص : 97 .

الموقف الإنشائي و هو يتفاعل مع موضوعه و يواجـــه بالدراسة الممنهجة علميا ظاهرة اجتماعية أو انسانية ما , يؤكـــد أصحاب هذا الاتجاه و انصار هذه الرؤية في ذلك أنـــه (... حينما نتصدى نحن لدراسة كهذه , فنقطة انطلاقنا تختلف تماما عن نقطة انطلاق الدارســـين في البلاد المتقدمة , لأننا لا ندرس واقعا اجتماعيا شـــاخصـــا أمامنا , بل ندرس شـــيئا خفيا لا تبصـــره أعيننا ماثلا في واقعنا الاجتماعي , أو هو معدوم الوجود إلى حد ما في مجالنا الوطني أو القومي الحضـــاري . و من هنا فنحن نتحرك من نقطة نحاول بقدر إمكاناتنا أن نطرح خطط الإنشاء , لا صور الوصف كما يفعل الغربيون ...) [16] ...

أما هذا الموقف الثاني فيمكن تحدي بعده المفهومي من خلال تأكيد أن (.. خطط الإنشاء تختلف عن صور الوصف كما يعلم إخواننا المهندسون , فالإنشاء يقتضي على الأقل أبعادا ثلاثة (طول و عرض و ارتفاع) , و أحيانا يتوجب بعض المقاطع بقدر تعقد الشيء المراد وضع المخطط الإنشائي له ...) [17] ...

من صور الوصف إلى خطط الإنشاء :

أ – من تجليات صور الوصف :

الخطاب النبوي الشريف من خلال منظور و مخطط صور الوصف تتم مقاربته لا تجعله متميزا عن باقي الخطابات البشرية الأخرى , و إنما تنزع عنـــه سمة القداسة و تجرده من المرجعية الغيبية .. و تساويه كما و نوعا مع كل الخطابات , وتعتمد في هذه التسوية جملة من المقولات و المعايير و الإجراءات التي تنتمي في كلها إلى النزعة الوضعية .. و بالتالي تنتهي بالقارئ / المتلقي إلى طائفة من المخرجات و النهايات التي تحمل من المبررات والحجج ما يمكن أن تؤول به إلى نوع من الاستسلامية المعرفية و القناعة المفهومية .. قد تصادم مبادئه النهائية الكلية ومرجعياتها ...

انطلاقا مما تقدم ذكره يصـــبح الخطاب النبوي الشـــريف في قواســـمه المشـــتركة مع بقية الخطابات البشرية الأخرى هي المنطقة الرئيسة التي يسلط عليه الضوء بكثافة من قبل المناج المعرفية الحديثة لسانية و غير لسـانية , و لهذا مما يجب تأكيده بداية هو أن (.. الهدف المتوخى من الدرس اللسـاني هو اسـتجلاء الملكة اللسانية التي تتميز بها الكائنات البشرية, أو هو بتعبير آخر, استكشاف خصائص اللسان الطبيعي و وصفها و تفسيرها الوصـف و التفسير الملائمين ..) [18] , هذه الملكة اللسـانية التي من أهم وظائفها المفصـلية تحقيق التواصـــل بين الناس تأطيرها في عمليات دقيقة يمكن رصـــدها في صـــورتها الكلانية – وفقا للمنظور اللســـاني الحديث – من خلال شقين اثنين (.. شق *إنتـــاج* و شق *تـــأويل* . ينتج المتكلم خطابا (شفويا أو كتابيا)

[16] – المرجع نفسه , ص : 97 .

[17] – مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص : 97 .

[18] – أحمد المتوكل : الوظيفة بين الكلية و النمطية , دار الأمان – الرباط , ط1 : 2003 م , ص : 15 .

يتولى المخاطب تأويله ..)[19] وذلك ما يوضحه الرسم البياني الآتي :

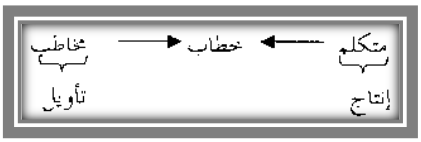

أما من الزاوية الواقعية الممارساتية فإن العملية التواصلية تأخذ أشكالا متنوعة و مستويات متباينة وفقا لمقتضيات المقام و المقال و المقاصد و الأهداف ... إلا أنه – على الرغم من ذلك كله – فإنه , من الناحية النظرية , يمكن ضبط مشهدياتها في رافدين أساسيين و خطين تمثليين رئيسين يجسهما الرسمان البيانيان الآتيان :

أ – الفعل التواصلي في اتجاه واحد (دون رد) :

في هذه الحالة يتجه الخطاب من (المتكلم) قاصدا (المخاطب) , فيقوم هذا الأخير بالامتناع عن تفعيل العملية التواصلية , وعندئذ (.. تتوقف عملية التواصل عند هذا الحد حيث لا رد ...)[20] , هذا موضح في الرسم البياني الآتي :

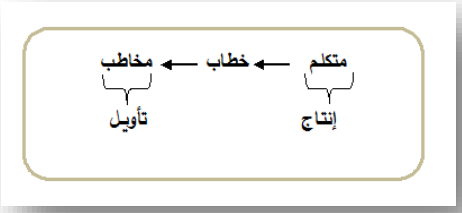

ب – الفعل التواصلي في اتجاهين متقابلين (رد متبادل) :

هذه الوضـــعية الثانية تمثل الحالة المألوفة و المتداولة يوميا في عملية التخاطب بين الناس , و عليه فإن (.. الغالب هو أن يرد المخاطب بخطاب ثان , حيث تعكس العملية , فيصـــبح المخاطب متكلما و المتكلم الأول مخاطبا ...)[21] و يستمر تبادل الأدوار إلى أن ينتهي اللقاء و ينفض الجمع .. و الرسم البياني الآتي يجلي ذلك و يلخصه :

[19] – أحمد المتوكل : المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي – الأصـــول و الإمتداد , دار الأمان – الرباط , ط1 : 2006 م , ص : 41 .

[20] – أحمد المتوكل : المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي – الأصول و الإمتداد, ص : 42 .

[21] – المرجع نفسه , ص : 42 .

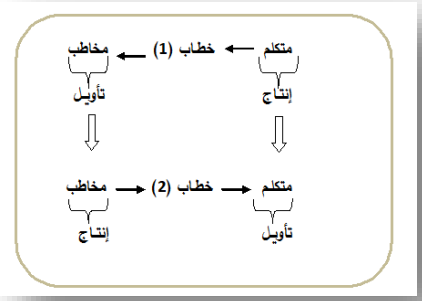

عملية إنتاج الخطاب و تأويله :

الخطاب التواصـــلي اللغوي إنتاجا و تأويلا إنما يتخلق من خلال عمليتين أســاســين مفصــليتين و متكاملتين في الوقت ذاته هما :

1 – عملية التركيب : وذلك يعود إلى أن (.. إنتاج الخطاب ينطلق من القصـد إلى النطق مرورا بالصـياغة الصرفية – التركيبية ...) [22] ... فتتفاعل المكونات الثلاث في عجينة واحدة لتوضع بين يدي المخاطب ..

2 – عملية التفكيك : و يعني ذلك أن تأويل الخطاب (.. يتخذ الاتجاه المعكوس , حيث الانطلاق من المنطوق فتفكيك الصـياغة ثم الوصـول إلى القصـد ..) [23] ... وصـولا – من خلال هذه المراحل الثلاث إلى فحوى الخطاب و مراميه الجوهرة ...

و الترسيمة البيانية الآتية توضح ذلك أكثر :

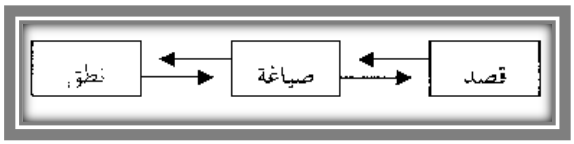

إن العملية التواصـــلية اللغوية بكل مكونتها وفقا لعملية الإنتاج و التأويل و في إطار فعالية الملكة اللغوية , كما تقدم ذكره بشـيء من الإيجاز إنما هو ظاهرة علمية عالمية توصـل إليها الدرس اللسـاني المعرفي , لا يمكن التشـكيك في مصـداقيتها ومقبولياتها العالية لدى كل الحقول المعرفية الإنسـانية عامة , هذا المخرج العلمي يخضـع له كل خطاب بشـري قديما و حديثا و مسـتقبلا , و بالتالي من نافلة القول أن نؤكد أن ذاك ينسحب على الخطابات النبوية الشريفة كلها من دون استثناء ...

ب – من تجليات خطط الإنشاء :

لقد غاب عن الدرس اللسـاني المعاصـر أن ما انتهى إليه منظور خطط صـور الوصـف هو من النتائج الطبيعية و الموضـــوعية التي لا يمكن أن يحيد عنها قيد أنملة , و ذلك لأن طبيعة هذا المنظور الواحدية

[22] – أحمد المتوكل : المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي – الأصول و الإمتداد , ص : 42 .

[23] – المرجع نفسه , ص : 42 .

الاختزالية هي التي تعمل على إنتاج هكذا مخرجات التي تتصف عادة بالشمولية و المطلقية ... بينما إذااستبدل ذاك المنظور بمنظور خطط الإنشاء الذي سبق توضيحه .. فإن الخطاب النبوي الشريف حينئذ , و إن كان يتقاطع مع الخطابات البشرية و الإنسانية جمعاء في الكثير من الآليات و الإجراءات و الإمكانات ..., فالخطاب النبوي الشريف بهذا المنظور يفرده بخصائص و مميزات لا يمكن أن توجد في خطاب بشري آخر .. بحيث ينتهي هذا المنظور الثاني إلى تأكيد أن الخطاب النبوي الشريف لا يعمل في العملية التخاطبية على تحقيق غايات تواصلية بما تحمله هذه الكلمة من دلالات , و إنما هو مع ذلك و فوق ذلك ينشئ للمتلقي / المخاطب لحظة تلقيه للخطاب النبوي .. ينشئ له بيئة و محيطا ثقافيا متميزا تتجلى فيه كل المبادئ الكبرى التي سيأتي الحديث عنها ... و لهذا فالناس عامة , بعد التجرد من الخلفيات الايديولوجية المغلقة , يشتركون في موقفية متميزة عالية الفرادية في تعاطيهم مع الخطابات النبوية الشريفة ...

3 – المبادئ الناظمة لنسق الخطاب – التخاطب اللغوي للحديث النبوي الشريف :

1 – مبدأ العلمية : (السننية الآفاقية و النفسية)

هذا المبدأ الذي يسري في كل مكونات الخطاب النبوي تأسيسا , و يدركه – عادة – كل متلق له يتسم بالموضوعية و البعد عن القبليات المغلقة .. هذا المبدأ إنما تشكلات نسيجه و نسقه (.. منبثقة عن حقيقية أساسية , هي : كون هذا الوجود العالمي محكوما بقوانين و سنن في الخلق , لا تتبدل و لا تتحول ... فهي ماضية في ضبط حركة الوجود العالمي و تنسيقها بدقة , لضمان توازنها و استمرارية سيرها كما قدره الله و أراده . فكل شيء في الوجود العالمي محسوب و مقدّر بدقّة .. فكل شيء في الوجود العالمي الذي يعد الإنسان جزءا منه , تهيمن عليه سنن ثابتة , تنظم أمره , و تدير حركته , و تنسق حركته بغيره من مكونات هذا الوجود , إمضاء لإرادة الله في خلقه)[24] ...

و لهذا يريد الخطاب النبوي الشريف أن ينقل بكل علمية و موضوعية إلى كل من يتلقاه حقيقتين أساسيتين في أولى تفاعلاته مع الآخر , الحقيقة الأولى و هي أن (.. الإنسان ... محكوم في علاقاته كلها – سواء تعلق الأمر بذاته أو كينونته كفرد , أو تعلق بغيره من الناس و الأحياء بهذه السنن و القوانين , لأنه جزء من هذا الكون لا ينفصل عنه , و لا يختلف عليه 'لاّ في جانبه الإرادي الذي تحكمه و تنظمه قوانين و سنن أخرى , نفسية و اجتماعية ... فاستقامة الإنسان و انتظام أمره في الحياة .. متوقف أصلا على مدى معرفته بهذه السنن و القوانين , و قدرته بعد ذلك على الإفادة منها في تحسين ظروفه , و رفع مستوى حياته العلمية و الروحية و الأخلاقية و العمرانية ...) [25] ... أما الحقيقة الثانية التي يأتي تأصيلها في هذا السياق فتتمثل في

[24] – الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية , المعهد العالمي للفكر الإسلامي , ط1 : 1996 م , ص : 120 – 121 .

[25] – الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية, ص : 121 .

كون (.. العلم بمفهومه الإسلامي الشامل للسنن الدينية و الطبيعية , أو الكونية العامة : هو المدخل الطبيعي الضروري لأي اعتقاد أو إيمان سليم , و عمل صحيح صالح , من شأنه أن يحقق مستوى لا بأس به من عمارة الأرض , بخلاف الاعتقاد أو النشاط الذي يفتقر إلى العلمية فإنه لا يأمن من الوقوع في الانحراف المفضي إلى الظلم و الفتنة و ذهاب الريح ..) [26] ...

و بناء عليه كانت الرسالة اللغوية النبوية / الخطاب النبوي تولي اهتماما كبيرا لمبدأ العلمية و تعتبره (.. أمرا من صميم مهمتها , باعتبارها وصية الله سبحانه للإنسان , من أجل أن تنسجم حياته , و يتوافق سيره مع حركة الكون , و يتناسق نشاطه مع مهمته الاستخلافية ,كما أشارت إلى ذلك ..) [27] ... العديد من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية الشريفة منها قوله تعالى ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ **سورة البقرة : الآية : 38** . ... و الخطابات النبوية على اختلاف موضوعاتها و أشكالها و أحجامها وسياقاتها ..(.. قائمة في مبناها و أصولها و كل قضاياها , على العلم الحقيقي المحيط بالإنسان و الكون و الحياة ... تكرس هذا النزوع العلمي في من تتوجه إليهم بالخطاب ...) [28] ... قال صلى الله عليه وسلم : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) [29] ... , وقال (من يرد به الله خيرا يفقهه في الدين , و إنما أنا قاسم و يعطي الله , و لن يزال أمرُ هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة, أو حتى يأتي أمر الله) [30] ... و قال (طلب العلم فريضة على كل مسلم, وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء, حتى الحيتان في البحر) [31] ...

2 – مبدأ التوحيدية :

محورية مبدأ التوحيدية و تمركزه الاستراتيجي في بنية الخطاب النبوي التحتية و الفوقية من الحقائق التي لا تحتاج إلى كثير بحث و تفكيك , لهذا فـ(.. القرآن كله و كذا السّنة : تأكيد لحقيقة التوحيد , و ترسيخ لها في النفوس و الواقع ... فلا غرابة إذن أن يعرف الإسلام بأنه : دين التوحيد , لأن كل شيء فيه يخدم هذه القضية ...) [32] ... و من نافلة القول بناء على ذلك الإشارة إلى أن (.. التوحيد هو القضية الأساسية الكبرى, الأكثر تكرارا و بروزا في الكتاب والسنة .. للأهمية الخاصة التي يحتلها التوحيد في الوجود الإنساني , و بنية الحضارة

---

[26] – المرجع نفسه , ص : 128 .

[27] – المرجع نفسه , ص : 121 – 122 .

[28] – المرجع نفسه , ص : 123 – 124 .

[29] – محمد ناصر الدين الألباني : صحيح الجامع الصغير و زيادته – الفتح الكبير , الطبعة المجددة و المزيدة و المنقحة , أشرف على طبعه : زهير الشاويش , المكتب الإسلامي , ط3 : 1988 م , رقم الحديث : 3913 , ص : 727 .

[30] – البخاري : صحيح الخاري , دار ابن كثير , ط1 : 2002 م , رقم الحديث : 7312 , ص : 1806 .

[31] – محمد ناصر الدين الألباني : صحيح الجامع الصغير و زيادته , رقم الحديث : 3914ص : 727 .

[32] – الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية, ص : 139 – 140 .

الإنسانية , فهو السلك الذي ينتظم حبّات أو فقرات هذا الوجود و هذه الحضارة, و يعطيها معناها, ويحدد لها وظيفتها, ويدعم فعاليتها ومصداقيتها, بدونه يفقد الوجود الإنساني معناه و يضيّع وظيفته, و يفقد فعاليته, و يتحول إلى فوضى وخراب, تماما مثل الجسم الذي يخرج من مدار حركته , فيختلّ نظامه و تتعطّل وظيفته ..) [33] ... وتأسيسا عليه فـ(.. التوحيد بالنسبة للوجود الإنساني – كما هو بالنسبة للوجود الكوني كله – هو الضابط الأساس في ضمان أداء الوظيفة الاستخلافية التي تعتبر المدار الطبيعي لحركة الوجود الإنساني, به تنسدّ إلى أصولها, و عبره تتجه نحو مقاصدها و نهاية مطافها, بلا انحراف و لا توقف ...) [34]

فالخطاب النبوي الشريف بكل تجلياته مؤسس كله على مبدأ التوحيدية الذي نجده ملخصا (.. بكثافة معجزة في شعار الإسلام الخالد : **لا إله إلا الله** الذي يختزن في داخله مكونات مشروع الاستخلاف , و ضمانات إنجازه بكفاءة وفعالية, لذلك قال العلماء بحق : **لا إله إلا الله منهاج حياة** , لأنها عبرت بجلاء عن قضية الإيمان المركزية , وهي : توحيد الله , و إفراده بالعبادة و الاستعانة ...) [35] ... هذا المبدأ بكله لم يأتي من أجل تشكيل تصور معرفي تجريدي ... وإنما (.. مضمون الصبغة التوحيدية كخاصية مركزية .. جاءت من أجل إقرارها في واقع الناس , و تلك هي أبعادها الكبرى تنطلق من توحيد الربوبية ثم توحيد الأسماء و الصفات, وتنتهي بتوحيد الألوهية مكونة منظومة مترابطة تؤهل الإنسان لمهامه الاستخلافية , و تمنحه ضمانات النجاح فيها , إن هو فهم عن ربه , و وعى موقعه من الكون و الحياة , و استقامت حياته على سنن الهدى و الحكمة و التمكين ..) [36] ...

3 – مبدأ الشمولية:

مبدأ الشمولية في الخطاب النبوي الشريف مكون استراتيجي آخر من المكونات المفصلية التب بها تمايز بقوة عن الخطابات البشرية جميعها قديما و حديثا و مستقبلا , إذ يعتبر مبدأ الشمولية و هو معجون في مبدأ التوحيدية (.. من مقتضيات الخاصة السابقة , باعتبارها محور الإسلام و عموده , بدونها يفقد النشاط الإنساني توازنه , لأنه يطيش عن غايته , و يتحرك بعيدا عن أهدافه ..) [37] ... و استمدادا من روح هذا التداخل التكاملي

[33] – الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية, ص : 130 .
[34] – المرجع نفسه , ص : 130 .
[35] – المرجع نفسه , ص : 131 .
[36] – المرجع نفسه , ص : 135 – 136 .
[37] – المرجع نفسه , ص : 141 .

بين مبدأ التوحيدية و مبدأ الشمولية يصبح الخطاب النبوي (.. ذا طبيعة شمولية , حتى يستوعب النشاط العبادي للإنسان , و يمكنه من إنجاز مهمته الاستخلافية بكفاءة و فعالية , في أبعادها الشمولية الكبرى :

- المعرفية .
- الروحية .
- الأخلاقية أو السلوكية .
- و العمرانية أو المدنية ....) [38] ...

وعلى هذا الأساس بات الخطاب النبوي, مقارنة بالخطابات البشرية الأخرى, مستوعبا (.. الحركة الإنسانية بصورة عميقة وشاملة, من خلال ما تؤسسه من مرجعية نظرية شاملة يتم في ضوئها تفسير التجربة التاريخية للإنسانية, وتحليل الواقع ومباشرة الارتقاء به إلى المستوى المطلوب الممكن, واستشراف آفاق المستقبل, وهي القضايا الحساسة التي اضطرب فيها الفكر الوضعي قديما, وحديثا, ولم يتمكن من بناء موقف شمولي متوازن بشأنها, لأنه لا يملك المرجعية الملائمة...) [39]

4 – مبدأ الواقعية :

ومن المبادئ المهمة في الخطاب النبوي الشريف المساهمة في تشكيل سمته وشخصيته الفريدة من نوعها مبدأ الواقعية وهو في عمقه وأساسه (خاصية أصيلة منبثقة من خاصية الصبغة التوحيدية مباشرة, ودالة عليها, كما انبثقت منها باقي الخصائص الأخرى و دلت عليها ..) [40] ... وفي هذا السياق يُراد بالمبدأ التوحيدي تشكيل التصور المعرفي القائم على أساس أن (.. الصبغة التوحيدية التي تعني: وحدة مصدر الكون و الحياة و الإنسان, ابتداء ووظيفة و مصيرا ..) [41] ...

بينما يعني مبدأ الواقعية في الخطاب النبوي حمولته المفهومية السارية في مبناه و معناه مع تعدد أشكاله بما يقتضيه المقام و التي مفادها أساسا (.. أن الوجود الكوني كله , بمفرداته و عناصره و قوانينه من صنع الله و تدبيره وحده , و الإسلام هو وحيه إلى خلقه, وهديه إلى الناس كافة , ارتضاه لهم لينظم حياتهم الإرادية تنظيما متناسقا مع حياتهم الطبيعية, فهو بالتالي جزء من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان, وفطرة الوجود العام, و ينسقها كلها جملة واحدة, تحقيقا للتوافق و الانسجام في حركة الوجود الإنساني و مسيرته نحو أهدافه الدنيوية , و غاياته الأخروية ..) [42] ... علما بأن هذا مبدأ الواقعية متاعلا مع الخطاب النبوي الشريف في كليته

---

[38] – الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية, ص : 141 – 142 .
[39] – المرجع نفسه , ص : 142 .
[40] – المرجع نفسه , ص : 145 .
[41] – المرجع نفسه , ص : 145 .
[42] – المرجع نفسه , ص : 145 – 146 .

يهدف إلى (.. الارتقاء بالحياة الإنسانية معرفيا و روحيا و سلوكيا و عمرانيا أو حضاريا , لتتطابق مع السنن الكونية ...) [43] ...

إن الخطاب النبوي الشريف و هو في حالة التحقق التواصلي و التعارفي في إطار مبدأ الواقعية (.. لا يتجاهل واقع الإنسان فطريا كان أم عارضا , بل نراه دائما حريصا على الانطلاق بالأوضاع من النقطة التي هي فيها فعلا , فلا يغفل واقع الناس و المجتمع و لا يتعسّف الحلول , و يلزم أتباعه بحركة متوازنة , قائمة على العلم بالواقع الإنساني الفطري و المعاش ...) [44] ...لهذا فمبدأ الواقعية في الخطاب النبو إنما هو في الحقيقة (.. نزوع متصاعد إلى التطابق مع النموذج المرجعي المتسق مع فطرة الوجود و فطرة الإنسان ,كما تعرضه نصوص الوحي و تخطط له , تحسبا للانفلات الناجم عن الجمود و التشدد ,كلما تهيّأت الشروط , و واتت الظروف حتى لا يتحول إلى أمر واقع ..) [45] ... قال صلى الله عليه وسلم : (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق) [46] ... , وقال (يسروا و لا تعسروا , بشروا ولا تنفروا ..) [47] ...

5 – مبدأ العالمية:

مما لا يمكن أن يغيب عن أي متلق للخطاب النبوي الشريف, وخاصة أولئك الذين يقاربونه من الناحية المعرفية المنهجية العلمية أنه خطاب يتحلى بمبدأ العالمية بامتياز, وفي هذا الإطار يراد بهذه الخاصة على وجه الدقة (..كون الدعوة الإسلامية جاءت للناس كافة بغض النظر عن مواقعهم وبيئاتهم وأوضاعهم الاجتماعية, فهي رسالة عامة للإنسانية جمعاء, تتجاوز بمضامينها الجديدة الآفاق المحدودة, التي كانت تدور حولها الأديان المرحلية السابقة, المحدودة في الزمان والمكان, حيث كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة ...) [48] ... ولهذا يمكن اعتبار احتواء الخطاب النبوي لهذا المبدأ لم يكن جراء قطيعة عن الخط الرسالي الذي انتهجه كل الرسل صلوات الله عليهم من قبله .... وإنما تمظهرات الخطابات النبوية ﷺ كلها مبنى ومعنى قد (.. جاءت كتتويج للجهد الرسالي الضخم الذي قامت به قافلة المرسلين, واستطاعت من خلاله أن ترتقي بالوعي الإنساني

[43] – الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية, ص : 146 .
[44] – المرجع نفسه , ص : 146 – 147 .
[45] – المرجع نفسه , ص : 148 .
[46] – محمد ناصر الدين الألباني : صحيح الجامع الصغير و زيادته , رقم الحديث : 2246 , ص : 447 .
[47] – البخاري : صحيح الخاري , دار ابن كثير , ط1 : 2002 م , رقم الحديث : 69 , ص : 30 .
[48] – الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية , ص : 149 .

إلى مستوى من النضج العقلي يؤهله لرسالة جديدة أكثر شمولا و عمومية, تخاطب الإنسانية كافة, وتدعوها للارتقاء والتعاون ... وهو تحول عميق في مسيرة الحياة الإنسانية على طريق العالمية ..) [49] ...

التوجه العالمي للخطاب النبوي الشريف و امتناعه عن الانغلاق في بيئته الجغرافية العربية (.. يظهر بوضوح .. على مستوى الشكل و المضمون معا , حيث يلاحظ بقوة كيف تجاوز عتبة أو نطاق الشخصانية و القومية و الطبقية والجغرافية .. إلى آفاق العالمية الرحبة, فكثر استعمال ... قوالب تعبيرية ذات دلالة عميقة , نقلت الدعوة من إطارها القومي الضيق المحدود, إلى نطاقها الإنساني العام, الذي يبرز جليا على صعيد المضامين الإنسانية الجديدة التي طرحتها على مستوى التصور العقدي, وبناء العلاقات الاجتماعية, حيث سارت شوطا بعيد المدى في إقرار العدالة والمساواة والحرية الإنسانية, وتمكين الإنسان من كسر القيود والتمايزات المجحفة التي أفرزتها أوضاع الانحراف عن منهج الله ..) [50]

6 – المبدأ الأخلاقي :

يعمل هذا المبدأ الذي يثوي كما ثوت باقي المبادئ الكلية في الخطاب النبوي الشـــريف على (... انسـجام الأفراد مع المجتمع , و بذلك يتكون المجتمع إذا لم يكن موجودا, و يقوى, وتنفك عنه أزمته إذا كان موجودا, فالتماســك شــرط كتماســك البنيان المرصــوص , كل مواد البناء فيه على درجة واحدة من التمدد و الانقباض في الحر والقر, وإلا تعـرض البناء للتفكك, والمجتمع كذلك بناء أفرادٍ, إذا كان فيه نشـوز من جانب هؤلاء الأفراد فهذا معناه أن المجتمع معرض للتفكك ..) [51] ...

و مما يجب التنبيه إليه في هذا السياق مع عدم إغفاله أو تجاوزه هو أن المبدأ الأخلاقي الساري في تضاعيف كل الخطاب النبوي الشريف يريد نفث حقيقة معرفية و قانونا لا يعارضه صحيح المعقول , هو أن (... شــرط انســجام الأفراد مع المجتمع, لا يمكن أن يقدمه العلم, و لكن تقدمه الأخلاق, و في بلادنا يقدمه الإسلام, و الإسلام وحده, فالنبي صلى الله عليه و سلم يقول : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . و هذا ليس كلاما أدبيا , إنه ضرورة من ضرورات الحياة , ضرورات تشمله الرسالة , لأنه ضرورة كبرى , فلقد جاء الاسلام لتأسـيس مجتمع , و كان لزاما أن يضـع هذا المجتمع على مكارم الأخلاق , فالأخلاق وحدها تضـمن وحدة المجتمع , و صيرورة المجتمع , و وظيفة المجتمع , أي ما يتكفله المجتمع لكل فرد يعيش فيه من ضمانات , و أمن , و رعاية , و تعليم , و رعاية صـحية .. الخ , و لا يمكن لمجتمع أن يقوم بهذا كله أبدًا على أسـاس العلم فقط ... فالعلم فشل في وظيفته الاجتماعية , لكنه نجح في الناحية الأخرى نجاحا نتقبله بكل إعجاب ,

[49] – المرجع نفسه , ص : 150 .
[50] – الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية , ص : 151 .
[51] – مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص : 108 – 109 .

و لكن يجب علينا أن ندرك نقائصه في الجوانب الاجتماعية الإنسانية البحتة . فالدين هو وحده الذي يستطيع أن يؤسس مجتمعا , و العلم لا يستطيع تأسيس مجتمع ...) [52] ...

7 – المبدأ الجمالي :

(لا يمكن لصـــورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل أو بالأفكار الكبيرة , فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح , و المجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة , لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره و أعماله و مساعيه ...) [53] ... و في الساق ذاته فإنه (.. لا يمكن تصور الخيـر منفصـلاً عن الجمال ...) [54] ... و تأسيسا على كل ما تقدم ذكره فإنه (.. بالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد , يجد الإنسـان في نفسـه نزوعا إلى الإحسان في العمل و توخيًا للكريم من العادات ..) [55] ...

(.. المجتمع الذي تأســس و تكونت وحدته على أســاس أخلاقي .. يتطلب صــورةً و مظهرًا , يتطلب تنظيمه الشكلي من حيث ملبسه , و معاشه , و ترتيب أشياء بيته , الأشياء التي تتصل بالقيم الجمالية , لذا لا بد .. أن تمدنا بالذوق الجمالي , و تنمي فينا هذا الذوق ...) [56] ... , و الخطاب النبوي الشريف قد راعى هذا المبدأ مراعاة لا يختلف فيها اثنان و أخرجه في أروع صـورة يمكن أن يصـل إليها البيان الإنسـاني و وظفته أرقى توظيف يستطيعه الحس البشري فـــ (.. النشوز إذا كان يحدث في المستوى الأخلاقي فهو يحدث أيضا في المســـتوى الجمالي ..) [57] ... و ينعكس بالضـــرورة على المســـتوى البياني و الخطابي اللغوي الواقعي التواصـــلي , كل ذلك يجعلنا لا نعتقد البتة أنه (.. قد أهمل أو زهد في هذا الجانب , لأننا نرى أن القرآن الكريم عندما يذكر الجمال و البغال يقول : ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ** ﴾ سورة النحل , الآية : 06 . ... القرآن .. يبرز القيمة الجمالية يظهرها للحياة ..) [58] ...

8 – مبدأ المنطق العملي (الفعالية):

يقوم جوهر هذا المبدأ على مفهوم معرفي دقيق قائم على أساس تجلية (..كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده , و ذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئا دون مقياس , يستمد معاييره من الوسط الاجتماعي و ما يشتمل من إمكانيات ... أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة ..) [59] ... هذا يعني

---

[52] – مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص : 109 .
[53] – مالك بن نبي : مشكلة الثقافة , دار الفكر المعاصر , ط 2000 م , ص : 81 .
[54] – المرجع نفسه , ص : 82 .
[55] – المرجع نفسه , ص : 82 .
[56] – مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص : 110 .
[57] – المرجع نفسه , ص : 111 .
[58] – المرجع نفسه , ص : 110 .
[59] – مالك بن نبي : مشكلة الثقافة , ص : 85 .

أن المراد من مصطلح المنطق العملي هنا (.. الضابط الذي يربط بين الأشياء و وسائلها و بين الأشياء و أهدافها ...) [60] ... ومن ثمة فهو يجسد (.. منطق العمل و الحركة ..) [61] ... فعلا و واقعا على المستوى الفردي أو المستوى المجتمعي , لهذا , ومما لا شك فيه (.. نحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا , غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره : من الإرادة و الانتباه شيء يكاد يكون معدوما ..) [62] ...

إن الخطاب النبوي الشريف زيادة على كونه حاملا لتركيبة مضمونية معقدة رسالية حضارية استخلافية , تسري في عروق هذا الخطاب النبوي الشريف نفسه روح المنطق العملي , فهو يملك قدرة فائق على تحويل منظوره و مضمونه و شحنته المعرفية إلى واقع عملي ملموس ..., و خلفية هذا التصور تعود إلى أن (.. المجتمع الذي تحققت وحدته و تحقق شكله , له حاجات ضرورية و يومية تتحقق بنشأة ... الفعالية .. إذا عبرنا عنها بتعبير أو مصطلح آخر .. المنطق العملي ..) [63] ...و هذا الأخير من حيث المفهوم العلمي التقريبي هو عبارة عن (.. تركيب الحركات حسب نتيجتها , و الوقت الذي تتخذه و تستغرقه ..) [64] ... هذه البنية السلوكية الفردية أو المجتمعية التي تتفاعل فيها ثلاثة مكونات أساسية : الحركة – النتيجة – الوقت ليست مما يفطر عليه طرف دون طرف آخر , و إنما هي ظاهرة إنسانية كامنة , تملك من القابلية ما يجعلها تنتقل من القوة إلى الفعل .. و ذلك لأن (.. الشعوب لها مقاييسها , لكنها لا تفقد المنطق العملي , لأنها تعلم أنه إذا اختل المنطق العملي فهذا يؤدي إلى العبث , و يعرض المجتمع إلى تضييع مصالحه ..) [65] ...

رسم بياني :

[60] – المرجع نفسه , ص : 87 .
[61] – المرجع نفسه , ص : 87 .
[62] – المرجع نفسه , ص : 86 .
[63] – مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص : 110 .
[64] – المرجع نفسه , ص : 111 .
[65] – المرجع نفسه , ص : 111 .

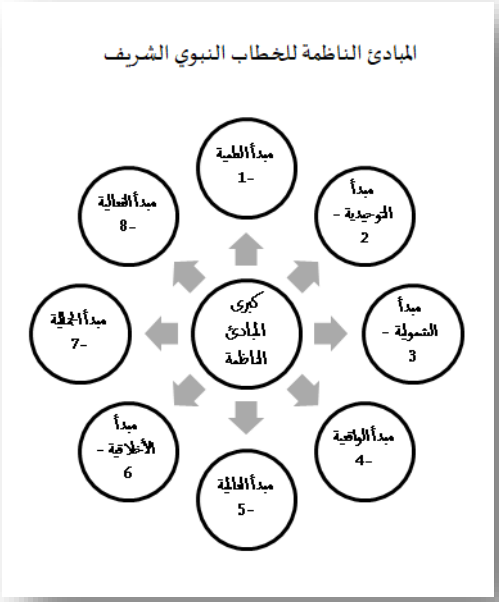

الخاتمـة :

من أهم ما يمكن أن تنتهي إليه هذه الأوراق المتواضـعة تأكيدها أن الخطاب النبوي الشـريف و إن كان يتقاطع في نقاط كثيرة مع كل الخطابات البشـرية اللغوية التواصـلية , و يشـاركها في الوقت ذاته المكونات البنيوية الصوتية و الصرفية و الدلالية و الجملية و النصية ... و التخاطبية بصفة عامة , فإنـــه يتميز عنها جميعا بإمكانات تأسيسية بعضها قد تم اكتشـافه في إطار الإعجـاز النبوي و بعضها لا يزال قيد الدراسة و البحث , لكن هذه المقالة عملت على محاولة تبيين واحدة من أهم النقاط الفارقة للخطاب النبوي الشـــريف والتي تعمل على جعله يلقى مقبولية فريدة عند متلقيه, خاصة أولئك الذين يتفاعلون معه من دون خلفيات معرفية قاهرة ... إن الخطاب النبوي الشريف , على اختلاف أحجامـــه و مناسباته و سياقاتـــه المقامية , في اللحظة التي يفاعل متلقيـه تواصليا , يصنـع معه بيئة ثقافية دقيقة و محيطا تخاطبيا خاصا .. يحسه متلقي الخطاب النبوي في التو و اللحظة , مما يجعلـــه , أي متلقي الخطاب النبوي , يضفي على هذه اللحظة التواصلية نوعا من الاحترام و التقدير ... تناسب ما تلقاه من تأثيرات الخطاب النبوي الشريف من حيث مبناه و معناه ....

و النقطة الثانية تتمثل في أن الخطاب النبوي الشريف لا يعطي بعض أسراره , و لا يفيض بمكنوناتـه شكلا و مضمونا إلا إذا كانت المنهجية المتبعة في مقاربته تتسم بالعلمية الدقيقة و الموضوعية المعرفية الصارمة البعيدة عن التحيزات الايديولوجية و سلطة الخلفيات و القبليات ... و عليه فالانتقال من منهج قائم على صور الوصـف يسـلط أضـواءه في تعاطيه مع الظاهرة على جانب واحد منها إلى منهج قائم على خطط الإنشـاء , حيث يقلب الظاهرة موضوع الدراسة العلمية على جميع أوجهها و يتناولها بعلمية دقيقة من جوانبها جميعا ..

أما النقطة الثالثة فإن المبادئ المشـــار إليها في هذه الورقية البحثية تمثل جانبا من جوانب البنية

التركيبية المعرفية للخطاب النبوي الشريف , و هذه المبادئ لا يمكن لخطاب بشري مهما كان نوعه أو شكله أو مستواه .. أنها يضمها جميعا في خطاب واحد فقط , ناهيك أن تكون جميعها قارة و ثابتة في خطاباته عبر صيرورة الحياة و تحدياتها ...

قائمة المصادر و المراجع :

- القرآن الكريم

1 - أحمد المتوكل : الوظيفة بين الكلية و النمطية , دار الأمان – الرباط , ط1 : 2003 م .

- أحمد المتوكل : المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي – الأصول و الامتداد , دار الأمان – الرباط , ط1 : 2006 م .

2 - أحمد قاسم كسار : النظرية التحويلية التوليدية و تطبيقاتها في نصوص السنة النبوية , مجلة الحديث مجلة علمية محكمة نصف سنوية , يصدرها معهد دراسات الحديث النبوي (لإنهاد) , الكلية الجامعية الإسلامية العالمية بسلانجور (ماليزيا) السنة الثانية : العدد : الثالث , 2012 م .

3 - الأزهر الزناد : نسيج النص بحث فيما يكون فيه الملفوظ نصا , المركز الثقافي العربي , ط1 : 1993 م .

4 - البخاري : صحيح البخاري , دار ابن كثير , ط1 : 2002 م , رقم الحديث : 7312 .

5 - الزمخشري : الفائق في غريب الحديث , تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم , عيسى البابي الحلبي و شركاؤه , ط: 2 , ج1 .

6 - الطيب برغوث : المنهج النبوي في حماية الدعوة – و المحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية , المعهد العالمي للفكر الإسلامي , ط1 : 1996 م .

7 - طه عبد الرحمن : فقه الفلسفة (1) الفلسفة و الترجمة , المركز الثقافي العربي , ط1 : 1995 م .

8 - مالك بن نبي : مجالس دمشق , دار الفكر , ط2 : 2006 م .

- مالك بن نبي : مشكلة الثقافة , دار الفكر المعاصر , ط 2000 م .

9 - محمد حسن زراقط : تاريخانية السنة , بين الفهم التاريخي و تعطيل السنة , مجلة البصائر , العدد 47 , السنة : 2011 م .

10 - محمد ناصر الدين الألباني : صحيح الجامع الصغير و زيادته – الفتح الكبير , الطبعة المجددة و المزيدة و المنقحة , أشرف على طبعه : زهير الشاويش , المكتب الإسلامي , ط3 : 1988 م , رقم الحديث : 3913

11 - مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب , دار الكتاب العربي , ط5 : 1999 م , ج 2 .

12 - نيكلاس لومان : مدخل إلى نظرية الأنساق , ترجمة يوسف فهمي حجازي , منشورات الجمل